

دولة البرين والبحرين

دكتور نظير مسان سعداوى

- ١ — التعريف بدولة البرين والبحرين سياسياً وقانونياً ودولياً .
- ٢ — العوامل المساعدة في بناء الدولة .
- ٣ — التغييرات الجديدة التي أحدثتها هذه الدولة .
- ٤ — العوامل التي قوضت بناء هذه الدولة .
- ٥ — محاولات إحياء دولة البرين والبحرين .

— ١ —

من غير المعقول أن يخضع مواطنون أحرار في بلد ما لسيطرة وحكم أرقاء وأغراب ، يستعبدونهم ، ويستذلونهم ، ويقررون مصيرهم قرابة خمسة قرون !! لكن هذا وقع فعلاً في مصر يوم أن تبوأ عرشها بمالك فرقتى البحرية والبرجية متكئين على عمد مُسنَّدة من الشجاعة والنظام^(١) مكنتهم من إقامة ملك عريض ودولة كبرى في زاوية الشرق والجنوب من مثلث البحر المتوسط ، وهي الزاوية الأساسية في هذا المثلث الحيوى ، ذات الموقع الفريد ، وذات القيم الحضارية والروحية والاقتصادية والاستراتيجية الضخمة المتراكمة ، وذات المواقع التاريخية العالمية الحاسمة . ويقع على ضلعي تلك الزاوية البلاد الشامية والديار المصرية . لذا يشاء المؤرخون المصريون في العصور الوسطى أن ينعنوا تلك الدولة بنعت يدل على طبيعة موقعها فيطلقون عليها « دولة البرين والبحرين » البر المصرى والبر الشامى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر^(٢) ، كما يستفاد من نقش أمرى على البهارستان القلاوونى مؤرخ فى عام ٦٨٤ هـ ويحمل عدة ألقاب للسلطان سيف الدين قلاوون منها « ملك البرين والبحرين ، وصاحب القبلتين ،

(١) Gibbon E. : *The Decline and Fall of the Roman Empire*, V. 3, p. 501.

(٢) محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية طبعة ١٩٦١ ص ٧٤ .

وخادم الحرمين الشريفين» (١). وكما يرد من نعوت تزبوعلى المائة في رسالة للسلطان عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ببلاد الأندلس بعثها للملك الأشرف شعبان بن حسين سلطان مصر والشام في عام ٧٦٧ هـ . (١٣٦٥ م) منها « ملك البرين والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين » (٢) . وقد يكتفى بلقب « سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية » (٣) .

ومهما كانت نعوت سلاطين دولة البرين والبحرين ، فان المتتبع لحدودها السياسية مبتدئاً بالإقليم المصرى حسبما تصفها كتب المعاصرين يلحظ أن حده الشمالى يبدأ من رفح إلى العريش ، ممتداً على الجفار (٤) إلى الفرما . ثم بساحل بحر الروم ماراً بالطينة ودمياط ورشيد والإسكندرية وبرقه ، آخذاً على الليونة إلى العميدى إلى العقبة ، وهى آخر حدود مصر ، ثم يعطف الحد جنوباً إلى ظهر الواحات مقتبلاً على الصعيد إلى حدود النوبة ، مشرقاً إلى أسوان ، وينتهى حد مصر القبلى من ضفة القلزم حيث عيذاب على بلاد الحدارية إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادل التى على مصب النيل إلى جبال المعدن إلى صحراء الحبشة ويبدأ الحد الشرقى من بحر القلزم قبالة أسوان إلى عيذاب إلى القصير إلى القلزم ، ثم يتسع مشرقاً إلى تبة بنى إسرائيل . ثم يعطف شمالاً إلى بحر الروم عند رفح . وغالب ما بين بحر القلزم وبين مجرى النيل منقطع رمال ومحاجر وجبال ، ويسمى ما ساحل البحر فى هذا الحد بالبر العجم (٥) وقسمت ديار مصر إدارياً إلى قسمين كبيرين . الوجه القبلى والوجه البحرى ، ويحتوى أولهما على ستة عشر إقليمياً إدارياً ، وثانيهما على إثني عشر إقليمياً ، وعلى عهد السلطان

Wiet G. : *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, (١)
t. 13, p. 36.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٧ ص ١٠٨ و ١١٣ .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٠١ .

(٤) سمي الجفاران الدواب تجغرفية أى تهلك من السير لبعده مراحلهم ومشقة السير فيه فتهلك ، فاشتق الجفار كما قيل العقال والحطام والحجاز . وكانت الجفار فى أيام فرعون معمورة بالقرى والمياه وفيها قال الله تعالى : ودمرنا ما كان يصنم فرعون وقومه وما كانوا يعرشون . ولذلك سمي العريش عريشاً . راجع أبى الفدا . كتاب تقويم البلدان طبعة ١٨١٥ ، ص ١٥٩ .

(٥) أبو الفدا : شرحه ص ١٠٣ — شهاب الدين بن العمري : التعريف بالمصطلح

الشريف طبعة ١٣١٢ هـ ، ص ١٧٣ .

الأشرف شعبان انسلخ إقليم الإسكندرية من البحيرة ٧٦٧ هـ ، وتحولت الإسكندرية إلى نيابة إدارياً ، لها نائبا ودواوينها وذلك لأهميتها الاستراتيجية والتجارية^(١).

أما حدود بلاد الشام السياسية ، فتبدأ الغربية منها طرسوس التي ببلاد الأرمن مساحلة بحر الروم إلى رفح التي في أول الحفار بين مصر والشام ، وتمتد الحدود الجنوبية من رفح إلى حدود تبة بنى إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيله من البلقاء . ويحيط بالشام من الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلميه ، إلى مشاريق حلب إلى بالس ، ويبدأ الحد الشمالي من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سمساط إلى حصن منصور إلى بهسنى إلى مرعش إلى بلاد سبيس إلى طرسوس إلى بحر الروم^(٢) . وقسمت بلاد الشام إدارياً إلى ست أقاليم كبرى تعرف باسم النيابات هي : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والسكر ، ثم أضيفت إليها مؤخراً نيابتا غزة وملطية وكانت نيابة حلب حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون أكبر النيابات الشامية ، فاستبدلها بنيابة دمشق ، وجعل نائب دمشق أوسع النواب نفوذاً ، ولقبه بنائب السلطنة في البلاد الشامية ، وسواه في الرتبة بنائب السلطنة في الديار المصرية . فإذا قال السلطان « بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائباها » على قول صاحب التعريف^(٣).

ومما يستوجب الالتفات في حدود دولة البرين والبحرين السياسية أن يثير العالم الأثري فيت الشكوك فيما ادعاه السلطان سيف الدين قلاوون في «ماهدة له مع أمير صور الصليبي من أن الحجاز واليمن تقعان داخل نطاق دولته . غير أن هذه الشكوك يبددها نص تاريخي أثري عثر عليه العالم المذكور في القاهرة ، يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٧ هـ . ويلقب فيه قلاوون بعدة ألقاب منها « سلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القبلتين ، ملك الديار المصرية والجهات

(١) القلقشندي : ج ١١ ص ٤٠٥ — على ابراهيم : دراسات في تاريخ الممالك البحرية

ص ٣٤ .

(٢) تعرف بلاد سبيس ببلاد الروم أو الأرمن . وقد أدخلها أبو الفدا في تقويمه (ص ٢٢٦) في حدود الشام ، بينما أخرجها العمري في تعريفه (ص ١٧٦) وهو التحقيق على قول القلقشندي (ج ١٤ ص ٦٥) .

(٣) العمري ص ١٧٦ .

الحجازية ، والبلاد الشامية ، والأعمال الفراتية ، والديار بكرية» (١).

والمعروف تاريخياً أن الظاهر بيبرس أحيا الخلافة العباسية بمصر ليجعل سلطته شرعية ، ويكسب بلاطه تفوقاً في نظر بقية الأقطار الإسلامية ، ويقمع فتن العلويين بمصر (٢). وكان طبيعياً أن يكافئه الخليفة العباسي فيقلده «الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ...» (٣) وترتب على هذا التفويض الخليفة أن قاد السلطان بيبرس حملة مصرية مملوكية إلى الحجاز ، قاتلت التتار وطردتهم ، وحاربت حليفهم صاحب مكة وقتذاك وهو أبو نعي بن أبي سعيد وعمه إدريس بن علي شريكه . ودخل بيبرس أم القرى ، وكسا البيت الحرام . وأعاد الحج إليه بعد انقطاعه إثنتي عشرة سنة بسبب فتن التتار (٤) وترتب بيبرس أمور الحمل على أسس منظمة دأمة ، وفرض الرسوم على أميرى مكة والمدنية (٥). ومن ثم غدا صاحب مملكة البرين والبحرين « يتنازع على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم بالكعبة المعظمة ، داخلة في نطاق مملكته ، واختصاصه بكسوتها ودوران الحمل في كل سنة » . بعد أن كان خلفاء بني العباس يجهزونها من بغداد ، واستقرت القاعدة على ذلك إلى عصر القلقشندي (٦). على أن هذا لا يفيد استقرار الأحوال في الحجاز لسلطين المالك بصفة دأمة بدليل قول المقرئى تحت أحداث عام ٦٧١ هـ . « وفي شعبان حلف الشريف أبو نعي أمير مكة للسلطان وولده بالطاعة لهم ، وأنه التزم تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة في كل موسم ، وأنه لا يعاق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم في كل موسم ، وألا يتقدمه علم غيره » إلى أن يقول « وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالإسم الشريف المنصورى . وأن يفعل في الخدمة فعل الخالص الولى للسلطان ، ويلتزم مراسمه امتثالاً للنائب للمستنيب » .

Wlet : *op cit.*, t. 13, p. 65.

(١)

(٢) فليب حتى : تاريخ العرب المطول : ج ٣ ص ٧٩٩ .

(٣) المقرئى : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٥٤ . أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١١٣

(٤) الجبوتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار : ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) الملوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٥٧ .

ويتفق هذا القول مع ما جاء في التعريف للعمري « وبهذا تم ذكر النطاق بعصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب ، وليس أمره بمضبوط ، ولا بحفظ التهمة منوط » (١). ولكن يبدو من المكاتبات الصادرة من الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى أرباب الوظائف القضائية والإدارية بالملكة الحجازية أن الأمن استتب هناك والأمر استقر لمصر منذ عصر الناصر محمد وما بعده (٢).

أما بلاد اليمن التي يدعى السلطان قلاوون أنها جزء من الولايات الإسلامية الداخلة في نظام دولته ، فكان يحكمها بنورسول حكماً مستقلاً ، ويلقب صاحبها « سلطان الإسلام والمسلمين وقاهر الخوارج المتعدين ... سيد الملوك والسلاطين إلخ » (٣).

ورفض الإذعان والخضوع لسلاطين مصر ، بل سولت له نفسه أن يتزعزع مكة من السيطرة المصرية ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ). لكن حملة مصرية أدبته وصدته ، فصار بعدها « يدارى صاحب مصر ويهاديه لكان إمكان تسلطه عليه في البر والبحر الحجازي ، ولذلك اكتب الملك المؤيد داود وصية ، أوصى فيها الملك الناصر محمد صاحب الديار المصرية على ابنه المجاهد » فسير الناصر محمد سنة ٥٧٢٥ هـ حملة مصرية برية إلى اليمن لمكين الملك المجاهد هذا من الجلوس على عرشه. ودخلت الحملة المصرية زيد وتعزة وفرح اليمنيون بقدوم العسكر المصري فرحاً شديداً ، وبايعوا ملكهم المجاهد . وعادت الحملة إلى مصر مارة بمكة . لكن قائدها زج به في السجن مقيداً ، لأنه قصر في أخذ مملكة اليمن ، على القول المراجع (٤).

ومن ثم ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء والخضوع لسلاطين دولة البرين والبحرين ، ويرسلون سفاراتهم تحمل الهدايا النادرة من طرائف بلادهم من العود

(١) العمري : التعريف ص ١٨٠

(٢) راجع القلقشندي : ج ١٢ ص ٢٣٢

(٣) Wiet G. : Répertoire..., t. 13, p. 134.

(٤) القلقشندي : ج ٥ ص ٣٧ — المقرئزي : السلوك : ج ٢ قسم ١ ص ٢٥٩-٢٦٨

والعبر والصيني ورماح القنا ، فضلا عن التحف والفيلة والحيوانات والطيور^(١) .
وتدل صيغ المكاتبات الصادرة من سلاطين القاهرة إلى ملوك بني رسول باليمن على
أن الأخيرين كانوا غالباً في المرتبة الثالثة من ملوك الدول الإسلامية^(٢) .

وكيفما تكن إدعاءات قلاوون ، فإنها — بلا جدال — تفصح عن الأطماع
التوسعية الكبيرة لسلاطين البيت القلاووني ، وعن آمالهم السياسية التي تهدف إلى
خلق وحدة عربية إسلامية قاعدتها القاهرة حسبما تدل وثائق عصرهم ، ومنها ما يشهد
إلى إسرافهم في الألقاب العديدة التي يتصف بها الواحد منهم « سلطان العرب والعجم
سيد الملوك والسلاطين .. سلطان الأرض ذات الطول والعرض .. ملك البسيطة ..
سلطان المراقين والمصرين ... ملك البرين والبحرين ... سيد ملوك العرب والعجم
والترك والديلم »^(٣) . ومن تلك الوثائق كتاب الأشرف خليل بن قلاوون إلى نكتو
ملك مغول فارس سنة ١٢٩٣ م يطلب مفاوضته في أمر تسليم بغداد لتسكون مقرأ له
كما كانت للعباسيين من قبل ، ولو طال عمر خليل « لكان يفتح غالباً بلاد العراق »
على قول ابن عباس^(٤) . ومنها أخيراً كتاب الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك غازان
محمود يطلب منه الجلاء عن العراق في لهجة شديدة نصها « وإن سولت لك نفسك
خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك . وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ويبدل
وجودك بالعدم ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن
الروم والعراق جميعاً »^(٥) ألم يفسر ذلك كله سعة أحلام وأطماع بيت قلاوون ،
وما بلغت دولة البرين والبحرين في عهد هذا البيت من سعة الإنتشار وقوة التأثير .
وحسبك أن تعرف أنه وصل إلى بلاط الناصر محمد ثمانية رسل في عام واحد (١٣١٦م)
تقدم له فروض الولاء والطاعة وتتودد إليه ، وأنه أجرى لأحد سلاطين شمال إفريقية
المخلوعين مائة درهم في كل يوم قضاء في ضيافة القاهرة . ثم جهز له حملة حربية مصرية
سارت به إلى بلاده ، ومكنته من العودة إلى عرشه . وحسبك أن تعرف أيضاً أن

(١) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٢ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٦٤ حاشية ١ — القلقشندی : ج ٧ ص ٣٣٢ .

(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 11, pp. 9, 15, 36.

(٤) بدائع الزهور : ج ١ ص ١٢٧ ،

(٥) النهج السيديد : ج ٣ ص ٧٤ — جمال سرور : دولة بني قلاوون ص ٢٠١ .

السلطان برقوق عظم أمره ، حتى خطب باسمه في أما كن لم يخطب فيها لأحد قبله ،
خطب باسمه في توزيز من بلاد المعجم ، وفي الموصل وفي ماردين وفي سنجار وضربت
السكة باسمه في جميع هذه البقاع^(١).

واتخذ سلاطين القاهرة من ولاء وإخلاص عرب البحرين لهم درعاً لحماية تجارة
الشرق الأقصى والهند المارة بالخليج العربي من تهديد مغول فارس لها وتسلمهم عبر
الخليج إلى الوطن العربي . ويصف مؤرخ معاصر عرب البحرين بأنهم « قوم يصلون
إلى باب السلطان وصول التجارة ، يجلبون جباد الخيل وكرام المهاري واللؤلؤ وأمتعة
العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الجباء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك .
وواصلهم إلى الهند لا ينقطع » واعترضوا مرة حاج العراق — نكاية في أبي
سعيد ملك فارس — فأخطرهم الحاج أنهم جاءوا بأوامر الناصر محمد صاحب مصر ،
فقال عرب البحرين « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء ، وسمح لهم بمواصلة السير
إلى الحجاز »^(٢) . وعلم الناصر بأمرهم فأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، وشكرهم على
إخلاصهم ووفائهم لوطنهم وقوميتهم . هكذا اعتمدت دولة البرين والبحرين في تأكيد
هيمنتها على الشاطئ الآسيوي من البحر الأحمر على الأسلوب الحربي والسياسي .
أما الشاطئ الأفريقي منه فكان يوجد في أقصى الجنوب ملوك الحبشة الحريصين على
توطيد صلاتهم بسلاطين القاهرة لمدة اعتبارات منها ، وجود سبعة ممالك إسلامية
في بلادهم ، ومنها اعتمادهم على الكنيسة المصرية في تعيين مطران قبطي لكنيسة
الحبشة فضلاً عن التماسهم تيسير سبل الأمن والراحة لحاج الأقباش القاصدين بيت
القدس . لذا جرت عادة متملك الحبشة أن يخاطب سلطان القاهرة بعبارة « أقل
الماليك يقبل الأرض وينهي » . كما جرت عادة سلاطين القاهرة على تحصيل الزكاة
من جهات سواكن وجزائرها ، ومكاتبة صاحبها بأن « يوفق بين عرب جهينه
ورفاعه ، ولا يمين طائفة على أخرى خوفاً على فساد الطريق »^(٣) .

(١) سعداوى : نظير حسان : صور ومظالم من عصر الماليك ص ٦٥ .

(٢) العمري : التعريف ص ٨٠ - القلقشندى ج ٧ ص ٣٧٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٢١١ — سرور ص ٢٠٨ .

(٤) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٥٨ وج ١ قسم ٣ ص ٧٠٠ .

وانتزع سلاطين دولة البرين والبحرين اعتراف معاصريهم من ملوك أوروبا المسيحية بحدودها السياسية ، وكل ما هو داخل فيها من سائر الأقاليم الرومية والعراقية والشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمينية والحجازية والديار المصرية والغرب ؛ وآية ذلك نصوص المعاهدات السياسية والاقتصادية ، ومنها تلك التي عقدها سيف الدين قلاوون مع ملك أسبانيا ألفونس وأخوه جيمس ملك صقلية والتابمين لهما من الأمراء المسيحيين عام ١٢٨٩ م (٦٨٩ هـ) . وجددها معهم ولده الأشرف خليل ، وجاء فيها حد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهي : من طرابلس الغرب ، وسواحل برقة والاسكندرية دمياط والطينة وقطيا وغزة وعسقلان وإفا وأرسوف وقيسارية وعثليت وحيفا وعكا وصور وصيدا ويروت وجبيل والبيرون وأنفة طرابلس الشام وأنطرسوس ومرقية والمرقب وساحل المرقب : باناس وغيرها . وجبلة واللاذقية والسويدبة ، وجميع الموانئ والبرور إلى نهر دمياط وبحيرة تنيس . وحدها من البر الغربي : من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانئها إلى نهر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانئها^(١) .

بعد ذلك التعريف السياسي والإداري والشرعي والدولي بدولة البرين والبحرين يتساءل المرء عن العوامل الأساسية التي أسهمت في بناء تلك الدولة على هذا النحو من الاتساع والمهابة ؟ . . . وتفرض معركة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) نفسها على رأس تلك العوامل ، لا لأنها أتقذت الحضارة الإسلامية ، فقد تخضر التتار بها بعد استقرارهم في فارس ، بل لأنها أتقذت الشام ومصر من الخراب الذي حل بالعراق وأهله ، وحفظت لهما موضعهما من العروبة ، وأدت إلى تصفية أمر التفرقة السائدة في الشام والجزيرة ، فاتهى بها ما كان من أيام الأيوبيين ، وما كان باقياً من ملك الصليبيين . وقامت بتلك المعركة الوحدة المصرية السورية ، وابتدأ فصل رائع من فصول ازدهار الحضارة العربية^(٢) .

(١) القلقشندي ، ج ١٤ ص ٤٦ . سعداوى : الحرب والسلام ص ١٤٧ .

(٢) غربال : من زاوية القاهرة ص ٨٢ و ٨٥ .

على أن بطولة الممالك التي تجلت في عين جالوت مرت في ثلاثة أدوار : الدور الأول كانت بطولة جمع الحكمة مع تقليد الحكم والزعامة للرجل الذي يستطيع مواجهة الشر والخطر ، ذلك قطز حفيداً أخذ شاهات خوارزم ، قبض عليه التتر ، وبعوه في دمشق حيث اشتراه أيبك^(١) . ينكر قطز على الملك المنصور على بن أيبك لهوه ولعبه ، ويقول لزملائه الأمراء « في مثل هذا الوقت الصعب لا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطعمه كل أحد ، وينتصب للجهاد في التتار » فأجابه الجميع « ليس لها غيرك »^(٢) . وفي الدور الثاني كانت بطولة قرار الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين وعدم انتظارهم في أرض الوطن ، وكان قطز كذلك هو صاحب الفضل في اتخاذ هذا القرار ، إذ قال للأمراء « ينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن^(٣) . وفي الدور الثالث كانت بطولة القتال وإدارة المعركة ، وأن الفخر للجميع ولكن الفخر الأكبر لقطز نفسه ، فهو الذي يشجعهم ، ويحسن إليهم الموت ، وهو يكرهم بعد كرة حتى قتل جواده في المعركة فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب حتى جاءت الوشاقية بالخيول فركب ومال على العدو بكل ثقله حتى نصر الله الإسلام وأعزه على قول أبي المحاسن^(٤) ، الخبير العالم بالأمور العجيبة التي اتفقت عامئذ (٦٥٨ هـ) بسبب تغير الدول ومتولى الحكم بالشام . فكان أول السنة إلى نصف صفر في مملكة الناصر يوسف بن أيوب ، ثم صار في مملكة هولاء كوملك التتار إلى الخامس والعشرين من رمضان ، ثم صار في مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل في ذى القعدة ثم صار في سلطنة الملك الظاهر بيبرس ، وقد شرکه في دمشق الملك المجاهد سنجر^(٥) . ولئن قطف الظاهر بيبرس البندقداري ثمار معركة عين جالوت ، وتسلطن على عرش المملكة ، إلا أنه تشبه — في جهاده — بصلاح الدين الأيوبي . وصعد فلول التتار إلى ما وراء الفرات ، وأعلن قيام

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ حتى ج ٣ ص ٧٩٧ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ — النجوم ص ٥٥ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ج ١ قسم ٢ ص ٣١٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٥ — النجوم ج ٧ ص ٧٩ .

(٥) ابن كثير : ج ٣ ص ٢٢٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٣١١ .

الوحدة المصرية السورية ، وعزم على ضم العراق إليها بأن جهز الخليفة العباسي
أبا القاسم أحمد الملقب بالزرائقي بمسكوه إلى جهة بغداد طمعاً في أن يستولى عليها
ويجتمع عليه الناس^(١). وسرعان ما علا شأن بيبرس ، وأرسل في استخراج الزكاة
من سائر الجهات ، وأسلم على يديه « عالم كبير من التتار الواصلين ، ومن الفرنج
المستأمنين والأسرى ، ومن النوبة القادمين من عند ملكها »^(٢).

وكيفما كانت أهمية عين جالوت في بناء دولة البرين والبحرين فإن اختيار
حاضرتها يأتي في المرتبة الثانية . أتكون العاصمة في البر الشامي تمشياً مع الواقع
والنطق على ضوء غارات المشاركة ومؤامرات الغزاه ودسائس الانصاليين ، أم تكون
العاصمة بالبر المصري حيث تربى المالك وشبوا على الإفتنان بمصر ، وكما جرت
السوابق التاريخية المشتبهة في الأحوال والمناسبات وأقربها إلى علم أمراء البحرية
ما قضت به المارك على عهد أسيادهم الأيوبيين . لذا قرروا العودة إلى مصر « أطيب
الأرضين وعجمها أكرم المعجم أنساباً » . على قول الحديث النبوي الشريف . ومصر
في تقدير المقرئ تمثل صدر الطائر ورأسه ، على حين يمثل أحد جناحيه المشرق
الإسلامي ، ويمثل الآخر المغرب^(٣) . تمتاز مصر بموقع جغرافي فريد ، وأرض خصبة ،
غنية في مواردها ، وغلتها ، وشعبها يستجيب للنظام والطاعة ، ويستكين - فطرياً
- للعرف والقانون ، لا يستقيم أمره إلا بالوحدة والنظام ، يقول الشاعر في مصر
وأهلها : سقياً لمصر وماحوت من أنسها وأناسها^(٤).

ومهما يكن شيوع الخلاف قديماً وحديثاً في المفاضلة بين دمشق والقاهرة ،
فسرعان ما غدت القاهرة على زمن صاحب التعريف « أم المالك وحاضرة البلاد ،
ودار الخلافة ، وكرسى الملك ، ومنبع العلماء ، ومحط الرحال ، وتبعها كل شرق
وغرب وبعد وقرب ، خلا الهند »^(٥) . . . ويصدق عليها قول أحد مشايخ العلم في

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٩٩ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١ و ٤٩ .

(٥) العمري : التعريف ص ١٧٢ .

المغرب العربي آنذاك : «من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»^(١) . ويصفها أبو القاسم البرجى بعد أن أسفره إليها سلطان المغرب في مهمة سياسية بقوله « إن الذى يتخيل الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فانها أوسع فى كل ما يتخيل فيها » . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك الوصف^(٢) . ولم لا يكون الإعجاب وفى القاهرة الجامع الأزهر ، ينفد إليه طلبة العلم والفقراء ، يلازمون الإقامة فيها ، ويشغلون بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو . وتعقد به مجالس الوعظ وحلقات الذكر ، فيجد الأثر له « من الألسن بالله والارتياح ونزوح النفس ما لا يجده فى غيره » على قول المقرئى^(٣) .

وما أبلغ قول ابن خلدون فى القاهرة يوم الفاتح من ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ حين انتقل من الإسكندرية إليها « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الدرر من البشر وإيوان الإسلام . وكرسى الملك . تلوح القصور والدواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأفأقه ، وتضوء البدر والكواكب من علمائه . . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعيم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه .. »^(٤) .

ويصف الزعيم المغولى هولوكو القاهرة فى إحدى رسائله أنها « كروان سراى » أى محط الرجال والتاجر والمال وفندق المسافرين ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها فى سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى^(٥) . ويبرز هذا الوصف على أية حال أهمية القاهرة كسوق عالمى ، يزخر

(١) ابن خلدون : المبتدا والخبر ج ٧ ص ٤٥٢ .

(٢) المقرئى : نفتح الطيب ج ٣ ص ١٣٤ .

(٣) الخطاط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المقرئى : نفتح الطيب ج ٣ ص ١٣٣ .

(٥) السلوك : ج ١ قسم ١ ص ٤١٦ وج ١ قسم ٢ ص ٤٢٦ حاشية ٣ للدكتور زيادة ..

بمتاجر الشرق وبخاصة بعد أن امتد نفوذ المغول إلى الخليج العربي وتحويل التجارة الهندية منه إلى الطريق البرى عبر أفغانستان وفارس^(١). ويحتوى سوق القاهرة على القيساريات والفنادق والوكالات والحانات والبنوك وكل ما يثير إعجاب الزائر من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . يصف المقرزى فندق بلال بقوله « ما برح يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه ، فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفصل عنها فى الفندق غير مساحة صغيرة بوسطه . وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجلب وصفه ... وعلى باب سوق السلاح فى الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار » . ويعضى المقرزى فى وصف بضات الحياه وحركة السوق فى القاهرة فيقول : وسمعت الكافة بمن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون رعى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها اللبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله يباعو اللبن من الحيط والحصر التى تعمل تحت اللبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الجبوب والأفاويه وغيرها ، فان هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل^(٢) .

أما حجم سوق القاهرة فيفوق العد والحصر ، وحسب القارىء أن سوقاً واحدة من أسواق القاهرة وهى القصبه يقول عنها المقرزى « سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول إنها تحتوى على إثني عشر ألفاً حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة إلى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تهبج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع ، فضلاً عن إحصاء ما فيها من

Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 360.

(١)

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ .

الأشخاص»^(١) . ويشمل سوق القصة المسافة الحالية الممتدة من جامع الحاكم شمالاً إلى جامع ابن طولون ومسجد السيدة نفيسة جنوباً . ويشبهه في هذا الوصف شارع الموسيقى في وضعه خلال الربع الأول من القرن العشرين على قول قيت^(٢) .

كذا ، اختار سلاطين المماليك القاهرة بدلاً من دمشق عاصمة لدولتهم ، فأصبحت — في رأى السائح المعاصر — أم البلاد ومحط رحل الحاج والراجل ، ومحشر الأسير الغادر ، ومنزل القصاد والوافدين ، ومجمع الصادر والوارد ، تزخر بالعالم والجاهل ، تروج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وكثرة عمائرها . ينقل إثنا عشر ألف سقاء الماء إليهم على الجمال ، ويقوم ثلاثون ألف مسكار بنقلهم على حميرها ، وتصعد بهم ست وثلاثون ألف مركب إلى الصعيد وتنحدر بهم إلى الإسكندرية ودمياط^(٣) .

ويشكل نظام الحكم المملوكي — بحيره وشبهه — الدعامة الثالثة من دعائم بناء دولة البرين والبحرين . والمعروف أن المماليك هبطوا مصر مختارين أو أسارى أو متخطفين في جماعات يرتفع عددهم حيناً ويهبط حيناً آخر . وتضاعف عددهم من ثمانمائة إلى خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان . عدا قوات إقليمية بلغت مائة وسبعة آلاف من المشاة وقوات احتياطية من العرب وصلت إلى ستة وستين ألف رجل^(٤) . والمماليك خليط من جنسيات شتى ومن أوطان متباينة ، ومن آباء مجهولين . هبطوا غرباء في بيئة جديدة حيث تربوا تحت ظروف واحدة وفرص واحدة كشفت عن مواهبهم ثم شكوا بعدها تشكيلاً صيرهم «سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ، ويردعون من جرأ وتقوى» على قول المقرئى^(٥) . يعطون أسيادهم عملهم وقت السلم وسيفهم وقت الحرب . ويرجع فضل استخدامهم على هذا النحو إلى الملك الصالح أيوب حين انقض عنه عشيره وخذله أنصاره ، فأتخذ عامة عسكره من المماليك وارتبطوا

(١) الخطط ج ٢ ص ٩٥ و ١٢٤ وصور ومظالم للمؤلف ص ٩١ .

(٢) Wiet G. : *Histoire de la Nation Egyptienne*, V. 3, p 493.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٢٦ .

(٤) Gibbon : *op. cit.*, V. 3 p. 502.

(٥) الخطط : ج ١ ص ٢١٤ .

بالوفاء له والتلمذ عليه^(١) . وبذا حلت رابطة الأستاذية هذه محل العصية الأيوبية المفقودة ، واتخذت شكلاً عائلياً ، عبر عنه ممالك السيد الواحد بالحشداشية . ولما ورث المالك الأيوبيين في حكم مصر والشام غدت رابطة التبعية والولاء للأستاذ ، ورابطة الزمالة « الحشداشية » تكونان نظام الحكم عندهم . وكان قطز أول مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه : ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك^(٢) .

ويذكر المقرئى أن الأمراء اختلفوا حول المناذاة بالطفل الناصر محمد سلطاناً عليهم بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ، فطلعت أم الناصر على السور وسألت عن غرضهم فقالوا « ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخضاع الفتنة ، ولو بقى من بيت أستاذنا (قلاوون) بنت عمياء كنا ممالكها ، ولا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية »^(٣) . غير أن المعارضين لسلطنة الناصر محمد نجحوا في إبعاده ونفيه إلى الكرك ، فجمع ممالكه الذين اشتراهم لنفسه بسوق الخيل ومعهم راياتهم الصفراء وهم يتصايحون بوالى القاهرة « زدنا نروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجىء صحبته » . ولسان حال كل منهم يقول « عدو أستاذى عدوى »^(٤) . وصعد بعد الناصر محمد إلى عرش السلطنة إثنا عشر نفر من أولاده وأحفاده بفضل تمسك المالك برابطة الأستاذية .

على أن رابطة الزمالة كانت فى واقع الأمر أقوى الروابط بين السلاطين والأمراء جميعاً . وكانت الطائفة الأوفى من طوائفهم الحزبية تنتخب للسلطنة غالباً أقدم زملائها وأكبرهم سناً وأسماهم وعداً وعطاء ، وتخلع من أجله ابن السلطان المتوفى على الرغم من الإيمان المغلظة والمواثيق السابقة^(٥) . حسبما تشهد عبارة الظاهر بيبرس لزملائه : « وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولن يجاهد فى سبيل الله »^(٦) . ويؤكد لاجين هذا

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٧٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٦ .

(٣) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٨٠١ -- النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٤٥ .

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٥ — صفحات لم تنشر فى ابن اياس ص ١٩١ .

(٥) زيادة : ملاحظات جديدة ص ٨١ وحاشية ص ٣٣٥ من ج ١ قسم ١ .

(٦) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥١٥ .

المعنى لزملاثة بعد خلعهم للعادل كتحبنا الذى قبض على خشداشة ، عز الدين أيبك الخزندار^(١) ، ونص قوله « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ، ولست مولياً عليكم من ممالىكى أحداً ، ولا أسمع فيكم كلاً ما بدأ ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ممالك العادل ، وأتم خشداشيتى (أى أتم وأنا من تاجر واحد) ومحل إخوتى»^(٢) وحلف لهم لا حين على هذا القول فاتفقوا معه ، وحلفوا له ونصبوه سلطاناً عليهم .

ومهما يكن أثر رابطتى الأستاذية والزمالة فى تدعيم سلطة الدولة ، فإن محاولة بعض السلاطين الفحول أمثال بيسر البندقدارى وقلاوون الألفى إفترار مبدأ الوراثة فى العرش لم تؤت أكلها تماماً لرفض الأمراء أن يكون ابن أحدهم الذى لم تحسكه التجارب ولم يشاركهم المحن سلطاناً عليهم ، بل يجب أن تؤل السلطنة إلى أكبرهم سناً وأكثرهم نفراً وأعزهم مهابة وجاهاً وأسجاهم عطاءً كى لا يبدو أن يكون سوى واحداً بين قرنائه primus inter parés على قول لنبول^(٣) وإذا كانوا قد أقسموا على الولاء لأبناء السلطان المتوفى ، فإهم يوفون بقسمهم ، وينصبونهم لمدة شهر أو سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، حتى يحوكون مؤامراهم وينسجوا دسائسهم فيمزلوهم ، ويسجنوهم وينفوهم أو يقتلوهم فى جو مليء بالظلمة والعموض . وترتب على ذلك أمران : الأول أن بلغ عدد الأطفال الذين تسلطوا على عرش دولة البرين والبحرين سبعة عشر طفلاً ، منهم ستة أطفال تقل أعمارهم عن العاشرة ، وإحدى عشر طفلاً عن السادسة عشرة . وامتدت سنوات حكمهم جميعاً إلى ما يقرب من نصف قرن ، توقفت خلالها نبضات الحياة فى البلاد ، وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للارهاق والضياع والسلب ، وصارت قاعدة قتل السلاطين أو عزلهم وانتشار القتال فى الشوارع والطرقات الطريقة المفضلة للوصول إلى الحكم^(٤) .

وجاء الأمر الثانى مترتباً على الأول ، وهو إشاعة العموض والذعر وفقدان الأمن والنظام إلى درجة أن يتشبه العبيد والخدم بأسيادهم المالك ، فينشثوا دولة

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ابن أبى الفضائل : ج ٢ ص ٥٩٧ .

(٣) Lane-Pool : *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 325.

(٤) صور وظالم المؤلف ص ٦ و ٧ .

لهم كدولة السادة . ويكون لها منهم السلطان والأمير والوزير والحاجب والسكران وغيرها من الرتب السلطانية . وتفسير ذلك أن المادة جرت بخروج العبيد يوماً في أعداد غفيرة ، لا شاغل يشغلهم سوى خيول سادتهم ، يرعونها في المرعى نهاراً وفي الاصطبلات ليلاً . وفي ربيع ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) أقاموا بنحوهم مدة يسيرة في إمبابة ، يلهون ويعبثون ، والأمراء عنهم لاهون ، حتى كان شهر ذى القعدة فأظهروا العصيان ، ونصبوا عبداً من بينهم سلطاناً عليهم ، ورتبوا له أرباب دولة وأرباب وظائف ، وولوا نائب الشام ونائب حلب ، وصار هذا السلطان يحكم فيهم بما شاء ، ونصبوا له تختاً يجلس عليه ، وحوله الوزير والأمير الكبير والدوادار ، ويركب وعلى رأسه صنجق أصفر ، وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة فصاروا يفسدون هنا وهناك ، وينهبون ما يمر عليهم من غلال وحمير وإبل وماشية وغير ذلك . فحصل للناس منهم غاية الأذى وعظيم البلاء . وبقي سلطان العبيد يفعل ما أحب وأشتهى ، يصدر الأوامر بالقبض أو الحبس أو القتل أو الغرامة على من يشاء ، والضرب على من يشاء ، ولا يقدر أحد على رده حتى علم سلطان البلاد وقتذاك وهو الظاهر جتمع بقيام سلطنة العبيد في إمبابة واستفحال خطرها ، فعين جريدة من مماليك السلطانية بمكة بعد معركة عنيفة من القضاء على دولة العبيد المزعومة ، وأخذ فتنهم التي لم يسمع بثلتها في سالف الأعصار على قول شاهد عيان (١) .

وأخيراً ، يأتي دور التشريع والقانون في تدعيم دولة البرين والبحرين التي صحت قيامها حدوث بعض التغيرات الجذرية اجتماعياً واقتصادياً ، فبعد أن كان الحاكم والمحكوم يكونون وحدة جنسية ودينية ولغوية وثقافية وسياسية قبل تبوء المالك عرش مصر ، صار الحاكم يكون طبقة الجاركية متعالية ذات سمات معينة ، ويغذيها بين الفينة والأخرى موجات وهجرات بشرية ، وافدة من الخارج لها نفس السمات والخصائص ، منها على سبيل المثال موجة مغولية تعرف بالاوراتية أو العويرانية تعادها نحو عشرة آلاف نسمة ، قدمت بلاد الشام خوفاً من الملك غازان وذلك على عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا — وكان من جنسها — فأزلهم بالساحل

(١) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور : ج ١ ص ١٩ . وراجع التفاصيل في

صور ومظالم المؤلف ص ١٣ وما بعدها .

الشامى قريب قاقون^(١) . وأحضر كبراءهم إلى الديار المصرية ، ورحب بهم ، وأنعم على مقدمهم طرغاي أو طرغية بإمرة طبليخاناه وطلئ ثلثة من أكابرهم ، بل من الصوص — طلى حد تعبیر المقرزى — بإمرة عشرة ، وأجرى على البقية الرواتب والإقطاعات وأنزلهم بحى الحسينية حيث تقاعلوا مع اللواتين ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ونشروا بينهم من مظاهر الملاعة والاستخفاف بالآداب العامة مالم يكن معهوداً من قبل ، سيما وأن بعضهم ظل على وثنيته ولم يكرههم السلطان على اعتناق الإسلام . ولم يمترض على عدم صيامهم شهر رمضان . ويصف المقرزى أثر ذلك السلوك الأجنبي وانطباعاته على اللواتين فيقول « وكانوا على غير الملة الإسلامية ، وتظاهر بعضهم بدين الإسلام ولم يصم البعض الآخر شهر رمضان عند حلوله ، فشكا الناس للسلطان كتبغا ، فأبى أن يكرههم على الإسلام ، ومنع من معارصتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، فشق ذلك على الناس »^(٢) .

لا بد إذن من وضع تشريع جديد للدولة يتششى مع هذا التركيب الاجتماعى بشقيه العربى والملوكى ، يحفظ لأصحاب البلاد قيمهم الاجتماعية ومقدساتهم الدينية وتقاليدهم الورثة جيلاً بعد جيل ، ويقر للحاكمين الأجانب امتيازاتهم ، ويشبع شهواتهم وغرائزهم البدائية الحشنة ، فضلاً عن تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الحاكم والمحكوم . يقول المؤرخون فى هذا الصدد أن الزعيم الغولى جنكزخان قرر لدولته — بعد أن استقرت فى بلاد المشرق — قواعد وعقوبات دونها فى كتاب على هيئة دستور أسماه ياسة Yassa على قول المقرزى أو اليسق على قول أبو المحاسن ، وجمله شريعة لقومه . اتخذ مواد أحكامه من شريعة أهل الاستبس وعرفهم ومن تجاربه الشخصية . وأعطت الياسة جنكزخان وأولاده من بعده السلطة المطلقة والكاملة القاطعة النافذة ، وحددت الياسة أصول القوانين المالية والجنائية والمدنية والتجارية للدولة الغولية^(٣) .

وسار أهل جنكزخان بعده على هدى من الياسة ، والتزموا بعبادها حتى

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ . وصور ومظالم ص ٣٧ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨٢ . Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 241.

قطع الله دابره ، وتفرقوا بين رقيق يباع أو وافدية ، فامتلات بلاد مصر والشام بطوائف الغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، وامتزج بلحم ملوك مصر ودمهم مهابتهم وتنظيمهم ، كما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن^(١) ، وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من سار على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكزخان من أمر الترتيب والمذهب ، فهو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد ، وإن كان بعضها قبله ، فلم تكن على هذه الصيغة أبداً ، ويمثل أبو المحاسن لذلك مثلاً يقاس عليه ، وهو أن الدوادار ومعناه مسك الدواة كان قديماً لا يباشره إلا متمم . كذلك كان بيبرس أول سلطان بمصر يعين أربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الأربعة^(١) .

ومن ثم غدت السياسة التشريعية فى دولة البرين والبحرين نوعين : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهمى من أحكام الشريعة وصنفت فيها كتب ، ويشرف على تطبيقها وتنفيذها طبقة رجال الدين على المذاهب الأربعة . وسياسة ظالمة تحرمها الشريعة وهى من الياساه — أو الياساق — وهى قوانين ضمنها جنكزخان من عقابه ، وقررها من ذهنه ، وجعل الناس يتبعوا كمن إليها وأكثرها مخالف لشريعة الله وكتبه^(٢) . ويشرف على تطبيق الياساه متولى الحجوية الكبرى والحجاب عامة ، ويفصلون فى قضايا المالك ، أمراء وعساكر ، وفق ما ورد فى قوانين الياساه . ولكن سرعان ما حدث تطور خطير فى النظام القضائى ، وطغت السياسة الظالمة على السياسة العادلة ، حسبما يشير المقرئى إلى ذلك الطغيان تحت أحداث ٧٥٣ هـ . حيث يقول « وفيها رسم للأمبر جرجى الحاجب أن يتحدث فى أمر أرباب الديوان ويفصلهم عن غرمائهم بأحكام السياسة . ولم يكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية ، فاستمر ذلك فيما بعد . وكان سبب ذلك وقوف تجار المعجم بدار العدل . وذكروا أنهم لم يخرجوا فى بلادهم إلا لما نزل بهم من جور التتار . وأنهم باعوا بضائعهم لعدة من تجار القاهرة ، فأكلوها عليهم ، وأرادوا إثبات إعسارهم على القاضى الحنفى وهم فى سجنه ، وقد فاس بعضهم فرسم لجرجى بإخراج غرماء التجار

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨١ — حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .

(٣) الخطط : ج ٢ ص ٢٢٠ — القلقشندى : ج ٣ ص ٣١٠ .

من السجن وخلصهم مما في قلوبهم . وأنكر على القاضى الخفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والديونيين . فأخرج جرجى التجار من السجن ، وأحضر لهم أعوان الوالى وضربهم ، وخلص منهم المال شيئاً بحد شيء .

ومن حينئذ صارت الحجابة بالقاهرة وبلاد الشام تتصدى للحكم بين الناس فيما كان من شأن القضاة الحكم فيه ^(١) . الأمر الذى أطمع قضاة السوء فى المناصب ، وصار الناحيس يطلعون إلى مصر ، ويتولون القضاء فى النواحي بالبدل ، وحصل بذلك وهن فى الأحكام الشرعية ^(٢) .

وكيفما انصف قضاة المعاملات وقتذاك بالظلم والانحراف ، فان الضرائب ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالأموال الديوانية كانت على نوعين كذلك . ضرائب عادلة تقرها الشريعة الإسلامية ، وسبق أن مارسها البلاد فى عصر ما قبل المماليك ، وتحصل من سبع موارد أساسية وهى : المال الخراجى ، ورسم المعادن ، والزكاة ، والجزية والجمارك ، ودار سك النقود . وضرائب غير شرعية تقرها الشريعة المغولية الظالمة أى الياسه ^(٣) . ويقل عددها ويكثر حسبها يعوز السلطان المال أو يضيق به الحال ، ويعبر عنها بالمكوس أو « الحقوق السلطانية والمعاملات المالية » ^(٤) أبطل منها الناصر محمد عام تولية السلطنة خمسة عشر نوعاً ، كما أبطل معها عقوبة الضرب بالمقارع ^(٥) .

وما أبدع ما حواه كتاب صبح الأعشى عن التراتيب الإدارية والديوانية لدولة البرين والبحرين ، وهى معقدة فى مجموعها ، لكنها مرتبة ترتيباً دقيقاً من أصغرها بالقاعدة فى الأطراف والنيابات إلى أكبرها بالقمة فى العاصمة . وتدل قوائمها على طول باع المماليك فى الضبط والربط ، وسرعة الحزم والبت فى أمور السياسة والحرب ، مبيناً فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ومنهم أرباب الوظائف الديوانية وأصحاب الوظائف الدينية . ويحكم نظام البريد بأنواعه البرية والجوية

(١) السلوك : ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٢ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ١٥٤ .

(٣) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٥٢ .

(٤) المخطط : ج ٣ ص ١٠٥ .

(٥) المخطط : ج ١ ص ١٠٢ و ١٢٨ وابن لى ج ١ ص ١٢٤ .

والصوتية والصوتية الصلة الوثيقة بين عاصمة الدولة وبين نياحتها وأطرافها . إذ المعروف أن سلاطين المماليك أنشأوا طرق البريد ، وأقاموا عليها الخانات ، وزودوها بالخيول والهجين والعمال والماء والزاد^(١) . كما أقاموا مطارات الحمام الرسائلي لحمل مكاتبات الدولة ، ويمبر عنها في المصطلح المملوكي بالهدى ، وأخذوا من قمم الجبال ومن الأبنية العالية في أقصى الثغور كالبيرة والرحبة مناور لرفع النار ليلاً والدخان نهراً ، وأرصد في كل واحد منها الديارب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم^(٢) . وقد ترقى المناور في سرعة وصول الأخبار إلى الدرجة القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتي من الجبر ما هو أسرع في البريد ، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك بوصول خبر في الفرات إلى مصر في مسافة يوم وليلة على الأكثر^(٣) .

ويرجع فضل تدعيم وتطوير أجهزة الإعلام المملوكية على هذا النحو إلى السلطان الظاهر بيبرس ، الذي أراد ترتيب دولته في دمشق ، حين أزمع العودة إلى القاهرة ، فعين لها شرف الدين محمد بن عبد الوهاب عم ابن فضل الله العمري كاتباً للانشاء هناك ، وقال له « إن قدرت أن لا تبتني كل ليلة إلا على خير ، ولا تصبحني إلا على خير فافعل »^(٤) . وتمكن بيبرس — بفضل نظام البريد — من لعب البولوا في كلتا العاصمتين (القاهرة ودمشق) خلال أسبوع واحد^(٥) ، فضلاً عن كثرة ترددده وأسفاره إلى الشام المحروس ليراقب عماله وليطمئن بنفسه على الأمن وسلامته ، وكان يعمل له موكب عصر وموكب بالشام حتى قال القائل في المعنى : يوماً عصر ويوماً بالشام ويوماً بالفرات ويوماً في قرى حلب^(٦) . ويضيف ميور « ويوماً في الحجاز »^(٧) .

(١) راجع التفاصيل في نظام البريد في الدولة الإسلامية المؤلف من ١١٧ وما بعدها .

(٢) التعريف من ١٩٩ .

(٣) القلقشندي : ج ١٤ ص ٤٠٠ — نظام البريد من ١٥٢ .

(٤) نظام البريد : من ١٢٣ .

(٥) حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .

(٦) ابن أبيس : ج ١ ص ١٠٨ .

وما أروع وصف المقرئ لمشاعر الدماشقة وفرحتهم حين سماعهم بعزم أحد السلاطين على زيارة البلاد الشامية ؛ فيتسابقون في إقامة الزينات ويتزاحمون على مشاهدة مواكبهم مثال ذلك تصويره لتقدم الناصر محمد بن قلاوون من الحجاز إلى دمشق يوم ١١ محرم ٧١٣ هـ . وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً بلغت فيه أجر البيت مبلغاً زائداً ، حتى أن بيتاً أخذت أجرته للنظر إلى السلطان في مدة من بكرة النهار إلى الظهر ستائة درهم . وعبر السلطان جموع الدماشقة وزينتهم وهو على ناقه وعليه بشت (العباءة من الصوف بلونه الطبيعي) من ملابس العرب بثام ويده حربه (١) . ويعنى ذلك كله أن مراكز البريد بدلت الخوف أمناً والوحشه أنساً في سائر جهات الدولة ، « حتى صارت المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية ، لا تحمل زاداً ولا ماء » على قول المقرئ (٢) .

- ٣ -

هذه عمدة أربعة (الحركة والعاصمة والنظام والتشريع) أسهمت — فيما يرى الباحث — في بناء دولة البرين والبحرين ويتبعها سؤال عن نوعية التغييرات الجزرية التي صحبت قيام تلك الدولة ؟ . وأولها في نظر الباحث زوال سيادة الجنس العربي وخضوعه لسيادة الجنس المملوكي التركي لعدة قرون (١٢٥٠ — ١٩٥٢ م) فقد خلاها العرب تقمهم في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . ومن ثم لم يكن بين العرب والماليك منذ قيام دولتهم حتى سقوطها سوى حب مفقود بسبب الكراهية الجنسية لمن مسهم الرق ، وصاروا حكماً على من هم أرفع مكانة وأولى بالحكم والولاية منهم وهم العرب الذين أعلنوا رأيهم بصراحة ، وعارضوا بزعامة أميرهم الكبير نجم الدين على الجمعدى سلطنة المعز أيك ، وامتنعوا عن دفع الخراج لأؤلئك العميد الخوارج « نحن أصحاب البلاد أحق بالملك من الماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد » (٣) . وتحاييل سلاطين الماليك بمختلف الوسائل على إخماد ثورات العرب وبخاصة عربان الشام « فهم جل

(١) السلوك : ج ٢ قسم ١ ص ١٢٢ .

(٢) شرحه : ج ١ قسم ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٣) شرحه : ج ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

القوم وعين الناس ، ولا عناية للولك إلا بهم ، ولا مبالاة بغيرهم ، ورأس الكل آآ فضل وآآ مرآ وآآ على ، وهم من آآ فضل الذين كانوا في نحر العدو . ولهم العديد الأكثر ، ولهم المال الأوفر . وآآ على منهم ، نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقي عيسى بن مهنا جار الفرات في تلايب التار . ولذا يضاعف إكرامهم ، وتوفر لهم الإقطاعات ، وتسنى العطايا . وصاروا الآن أهل بيتين : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى (١) . وتوطرت الصداقة بين هذين البيتين وبين الناصر محمد بن قلاوون بخاصة — بعد نفرة عظيمة عدة سنين — حتى عظم العرب في أيامه لجلبهم الخيل له وبذله في أثمانها ما لم يسمع بمثله ، فشمعل الغنى عامتهم ، وأقطع الناصر محمد أمراء البيتين هدة إقطاعات جليلة ، وخلع عليهم مائة وستين خلعة ، وأحضر أمراءهم إلى مصر لمشاركته في سباق الخيل (٢) . ويروى عن الناصر محمد أنه كان يقول « رأيت في بعض الملاحم أن الغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك في سويقة مازن » . فأوجس الممالك خيفة من ذلك القول في عام ٧٤٨ هـ حين شاع انتقال أبي الحسن المريني صاحب المغرب من فاس إلى تونس وهي أقرب إلى مصر من فاس بثلاثة أشهر ، ولذا تودد ، السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر لعرب الكرك واتخذ منهم كاتب سره ومستشاريه ، ولبس زى المربان مجاملة للعرب (٣) .

أما عرب مصر فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل ، لكنهم على سعة أموالهم واتساع نطاق جماعتهم ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من ينجد ولايتهم ، ولا يمرق ولا يشام ، لا يخرجون عن جدر الجدران (٤) . تفرقوا في الوجهين القبلي والبحري ، خلقت قبائل بني سعد وبني وائل وبني جذام وبني بقروبي عطية وبني النعائم بريف ومدن الشرقية . ونزل بنو هوارة وهم بطن من بني عمر ببلاد الصعيد . أما عرب غزاه فسكنوا الجزيرة ، على حين هبط عرب لجويلى ومرعى بالبحيرة ، وهم أشبه القوم بالتخلق بأخلاق العرب في الحل

(١) التعريف : ص ٧٩ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ١٦٨ — المختصر : ج ٤ ص ١١٣ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٦٨ .

(٤) التعريف : ص ٧٦ .

والترحال . يهربون إلى القيروان وقابس ويفدون على الحضرة وفود أمثالهم من أمراء العرب معلنين ولاءهم ، طالبين الإقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلي المحدود ووراثة المشيخات .

ومهما يكن من أوجه الخلاف بين عرب البرين الشامي والمصرى ، فإن ثوراتهم لم تتخذ ضد المالك ، ولا سيما إذا ما اقترنت بفتن المالك بعضهم بعضاً . من ذلك على سبيل المثال ما وقع عام ٨١٤ هـ . حين دبر الأميران شيخو ونوروز خلع للملك الناصر فرج من السلطنة المملوكية ، واتفقا على سلطنة الخليفة العباسي المستعين بالله مع احتفاظه بمنصب الخلافة ، على شريطة أن يحكم نوروز البلاد الشامية من غزة إلى الفرات ، ويحكم شيخو الديار المصرية من قطيا بالشرقية إلى أقصى بلاد الصعيد ، وأن لا يكتب الخليفة منشوراً أو مرسوماً قبل عرضه عليهما والحصول على موافقتهما . ولبس الخليفة العباسي شارة الملك ، وباس الأمراء له الأرض على عادتهم . ويعني هذا الخبر أن الفرصة واثت العرب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم كما لو كانوا قبل سقوط بغداد ، وأن يستردوا مجددم السالف وسيادتهم القومية . غير أن تفرق كلمتهم ، وفقدانهم صفات القيادة من ناحية ، وتفوق المالك حريياً عليهم من ناحية أخرى أضاع عليهم تلك الفرصة الذهبية . إذ اتضح لشيخو — بعد ستة أشهر إلا أياماً — أن يخلع الخليفة من السلطنة ويجلس مكانه بحجة أن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة ، وكثر الفساد في البر والبحر ، وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي ، له سطوة بجمع أهل الفساد ، وتنصلح الأحوال على يده . وأحضر شيخو القضاء وسائر الأمراء ، وكتب محضراً بذلك ، وخلعوا الخليفة ، وسلطنوا شيخو ، فثبت دعائم الدولة ، وقطع دابر وجدد العصاة من العرب والمالك على قول ابن إياس (١) . وجرى على الخليفة المستعين بالله ما جرى على أسلافه وأخلافه من حيث الأنزواء والاكتفاء باللقب الخلفي « وليس له من أمر ولا نهى ولا نفوذ ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور » على قول المقرئ (٢) .

واستفعل خطر العرب على المالك منذ عام ٨٧٢ هـ حينما انشغل السلاطين

(١) بدائع الزهور : ج ١ ص ٣٥٧ و ٣٥٨ .

(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٤٢ تحت أحداث سنة ٦٥٩ هـ Lewis : The Arabs in History, p. 105.

بتقلب دولهم ، وتغير في تلك السنة أربعة سلاطين ، استنجد الترك فيها بالعرب على بعضهم ، فكان من أمر ما يكون على قول مؤرخ معاصر (١) . وكاد الأمر يفلت من يد الترك إلى العرب لولا أن ولي السلطنة رجل خفي قوى الشكيمة هو قايتباي ، القى نبح في إخماد ثورات العرب بالصعيد ، وقتل منهم مالا يحصى ، ونوع بهم العذاب تنويماً ، فقبض على نحو ثلثمائة من عرب غزاة الثائرين ، ووضع الرجال في زناجير والنساء والصغار في حبال ، وعلق رهوس من قتل من الرجال في رقاب النساء ، وسمروهم على جمال ، وشقوا بهم من القاهرة يوم خروج الحمل ، ثم علقوهم على أبواب المدينة (٢) . الأمر الذي عمق الكراهية في نفوس العرب ضد الترك والماليك ، وعبر عنها السلطان طومان باي الثاني أثناء مقاومته لسليم الفاتح العثماني بقوله : إن العربان صارت كلها أعداء لنا وعوناً لعدونا ، لأنه ما منهم أحد إلا من قتلنا إما أباه وإما أخاه وإما ابنه وإما ابن عمه وإما واحد من أقاربه . وذلك لما كانوا يعصون علينا . فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثأره القديم (٣) .

وكان التغيير الثاني الذي صحب قيام دولة البرين والبحرين هو نقل مركز الثقل العالمي للغة العربية وآدابها وفنونها من العراق إلى مصر . إذ لم تعد بغداد عاصمة العالم العربي والإسلامي للنهضة العلمية والأدبية بعد أن خربت الخراب العظيم بقتل هولاءكو خان لسبعمائة من القضاة والفقهاء والصوفية ورهوس الأمراء والدولة والأعيان والمدرسون ، وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده (٤) . ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نودي بالأمان . وأحرق هولاءكو كتب العلماء التي كانت ببغداد من سائر العلوم والفنون التي ماكانت في الدنيا (٥) . وقيل إن هولاءكو ألقى بها بدجلة معاملة — بزعمهم — لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن (٦) ومهما يكن الأمر ، فإن سقوط بغداد وتخريبها على يد التتار قد وقع

(١) ابن نغر بردى : منتخبات ج ٣ ص ٦٣٢ .

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٣٥٧ وج ٢ ص ١٨٠ و ٢٤٣ .

(٣) شرحه : ج ١ ص ٣٥٧ .

(٤) المختصر : ج ٣ ص ١٩٥ — مادة بغداد بدائرة معارف، البستانى .

(٥) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥١ .

(٦) العبر ودبوان المبتدا والخبر : ج ٥ ص ٥٤٣ .

بعد مضي خمس وخمسون عاماً على سقوط بيزنطة وتخريبها على يد رجال الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣ م . وأنهى ما كان بين المدينتين الخالدتين من توازن حضارى وثقافى ، ازدهرت في ظله الحضارة الانسانية في منطقة الشرق الأوسط لعدة قرون ، ومنذئذ لم تعد له القيادة العلمية والحضارية إلى اليوم^(١) .

لكن مواطن علمية كبرى قامت على أنقاض بغداد في الأقطار الإسلامية الناشئة فيها بعد المحنة ، ومنها على سبيل المثال مدينة مراغة التي عمل بها الخواجة نصير الدين الطوسي الرصد ، ونقل إليه كثيراً من كتب الاوقاف التي كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ودار طب ودار حديث ، ومدرسة لكل فقيه ، ورتب فيها الفلاسفة والأطباء والمدرسين ذوى الرواتب الثابتة^(٢) . ولا شك أن غالب من رحل من علماء العراق والشام أيام النكبة والجفلة من التتار قد نال المكنانة السامية في القطر الذي حل فيه^(٣) . وبخاصة من سكن منهم الديار المصرية ، ويذكر منهم أبو شامة على سبيل المثال لا الحصر : الجمال يوسف الدايبسى ، والعماد أبو حامد الحسين المعروف بالحافظ ابن عساكر ، والسكّال التقيسى والحلي بن سراقه مغربى ، وكمال الدين أحمد بن القاضى زين الدين ، وأولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعيالهم وأموالهم ، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر^(٤) . فضلاً عن جماعة من مماليك الخليفة المستنصر البغاددة ومقدمهم شمس الدين سلار^(٥) .

أولئك خرجوا في قفل كبير بعد قفل إلى مصر حيث « الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت » . على قول السيوطى^(٥) . وحيث توفر لهم الأمن والرخاء والرعاية من السلاطين والأمراء الذين عنوا باللغة العربية وآدابها وفنونها ، ومنهم السلطان الأشرف خليل الذى اشتهر بمعد المجالس الأدبية ومطارحة الأدباء بذهن

Runciman : op. cit., V. 3, p. 304.

(١)

(٢) ابن كثير : ج ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) عباس الزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : ج ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ذيل الروضتين : ص ٢٠٩ و ٣١٢ و ٢٣٠ و ٢٣٢ — المختصر : ج ٣ ص ٢١٦

أحداث سنة ٦٦٠ هـ .

(٥) حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٦٥ .

رائق ، وزكاه مفرط ، فضلا عن معرفته بصناعة الإنشا والتوقيع . فكان لا يعلم على مكتوب حق يقرأه كله ، ولا بد أن يستدرك على الكتاب فيما يتبين لهم فيه الصواب ، إلا أنه تعاطف في آخر أيامه ، وصار لا يكتب اسمه على المراسيم والبرقيات ، ولا يكتب حرف الخاء (خ) إشارة إلى الحرف الأول من اسمه على قول المقرئ (١) . واشتهر كذلك السلطانان جقمق وخشقدم بفصاحة لسانهما بالعربية ، ولأولها مسائل عويصة في الفقه ، ترجم له فيها العلماء . ومن اشتغل من الأمراء بالعربية وعلومها ، وتحديثها بفصاحة وطلاقة جاني بك المتوفى سنة ٨٦٨ هـ . وخاير بك المتوفى سنة ٨٨٧ هـ ، وجاني بك حبيب العلأى الإينالى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ (٢) .

ويروى عن السلطان المملوكى بصفة عامة حرصه الشديد على أن يخاطبه جلساؤه باللغة العربية ، ويؤخذ من يخاطبه بالتركية مؤاخذه شديدة بدليل ما وقع لابن سالم (٨٧١ — ٨٥٢ هـ) واضع قواعد علم النحو على اللغة التركية يوم أن كلمة السلطان بالعربي فأجابه بالتركي قصداً للتعظيم عنده بذلك ، فغضب منه السلطان ، وأمر بضربه في حضرته ضرباً مبرحاً ، وأهانته إهانة بالغة على قول المراجع (٣) .

ورغم معرفة فئات الجنس المملوكى بالرطانة التركية والمغولية والفارسية وتحديثهم بها فيما بينهم ، فإن اللغة العربية كانت لغة البلاد القومية في المعاهد العلمية والدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والمعاملات اليومية . ولذا أنشأت الدولة إدارة — في ديوان الإنشا — لترجمة الكتب الواردة من بلاد المعجم ، وعين لها رئيس وكتابة يجيدون تلك اللغات (٤) .

وكان الأزهر ولا يزال أكثر وأبرز معاهد العلم في دولة البرين والبحرين للدراسات العالية في علوم الدين بخاصة والدنيا بعامه . ينفذ إليه طلاب العلم ومشايخه من مشارق الأرض ومغاربها للتمقق في دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقيه وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو ، ودراسة اللغة العربية وآدابها

(١) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٧٩٠ .

(٢) ابن أبيس : ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) التبر المسبوك : ص ٤٢٥ .

(٤) الدرر الكامنة : ص ١٩٧ .

وفنونها . وتمتد بالأزهر مجالس الوعظ وحلقات الذكر والتدريس العام بحيث يجهد الزائر له « من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس ما لا يجد في غيره » . على قول المقرئى^(١) . ويشارك الأزهر في تلك النهضة العلمية والأدبية الزاهرة المدارس العامة والجمامع والمؤسسات الاجتماعية والثقافية من خوانق وربط وزوايا ، فضلا عن المعاهد الفنية والعسكرية التي أحدثت تغييرات جذرية في حياة المجتمع بوجه عام . يشهد عليها ما خلفه النويرى والعينى والقلمشندى والعمرى والمقرئى وأبى المحاسن وابن خلدون وابن إياس وابن حجر ، أصحاب المصنفات والموسوعات المتشعبة الأطراف والأهداف ، والحفاظة لتراث القومية العربية الحضارى^(٢) .

وثالث التغييرات الجذرية التي أجرتها دولة البرين والبحرين كان استبدال اقتصاد البلاد النقدى التجارى بسلماته الحركية فى الداخل والخارج بآخر يمتد داخليا على اقتصاد إقطاعى قوامه الزراعة . ولم يكن هذا التغيير فجائيا ، بل جاء تدريجيا ، إذ المعروف أن نظم المعاملات التجارية لم تكن موحدة فى دول الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، فى مصر والشام شاع استعمال الدينار الذهبية على حين جرى التعامل فى فارس والعراق بالدرهم الفضية . وظل النظام النقدى ثابتا فى مصر طالما كان الدينار الذهبى هو وحدة النقود وقاعدة التعامل . فلما قل التعامل به تدريجيا منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، حين سلك الدرهم من الفضة والفلوس من النحاس ، تنبأ خبراء الاقتصاد آنذاك بالآثار التي سوف تترتب على النقد مستقبلا ، وصدق تنبؤهم بحدوث الخلل فى النقد على عهد السلطان العادل كتبغا (٩٤/١٢٩٦ م) . حين ضربت الفلوس وصارت المعاملة وزنا لا عدأ ، ومن ثم راجت الفلوس ، وصارت من النقد الغالب فى البلد ، فطردت النقود الرديئة الجيدة من التداول^(٣) .

على أن بداية الخلل الفعلى للنظام النقدى حدث منذ منتصف القرن الحادى عشر ، حين اتسمت رقعة الدولة السلجوقية وتمذر عليها الهيمنة على أطرافها ، واتضح لوزيرها ملكشاه آل ملك الطوسى الشهرير أن قاعدة إعطاء مرتبات للجند على

(١) المخطط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع : صور ومظالم المؤلف ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) المقرئى : لإغاثة الأمة ، ص ٤٧ و ٧١ .

اختلاف أصنافهم وأجناسهم أرهقت الإدارة المالية بأبهظ المرتبات والتكاليف ، ففكر هذا الوزير في الاستعاضة عن المرتبات التقدية بالإقطاعات من الأرض لختلف طبقات الجند حتى صار الإقطاع الحربى هو القاعدة^(١) في الدولتين السلجوقية والنورية ؛ وعنهما نقل السلطان صلاح الدين الأيوبي تلك القاعدة إلى مصر حسبما يروى المقرئى « ومنذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » فتقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمرء وعشرة للأجناد^(٢) .

وورث المالئك نظام الاقطاع الحربى عن أسيادهم الأيوبيين وأرسوا قواعده على أسس مقننة بعد أن قاموا بمسح البلاد وحصر زمامها مرتين : الأولى على عهد السلطان حسام الدين لاجين وعرفت بالروك الحسامى نسبة إليه ، والثانية على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعرفت بالروك الناصر الذى قضى بزيادة أنصبة الأمرء والأجناد فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر فى الروك الحسامى ، وخصصت العشرة قراريط الباقية للسلطان وممالئكه^(٣) . ويصور أبو المھاسن هذا التحول التدرئى فى اقتصاد البلاد فى عبارة بليغة نصها « وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سئقر جد بنى زئسكى ، ثم أنشأ بنو زئسكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب الممالئك ودولة الترك ، فانظر إلى أمر الدنيا ، وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشوؤها إلى يومنا هذا !!^(٤) واشترطت القاعدة الإقطاعية على الأمير المملوك أن يحتفظ بعدد معين من الجند يتراوح بين الخمسة والمائة حسب رتبته وإقطاعه وأن يخصص ثلثى دخله للاتفاق عليهم وأن لا يرث الأبناء الإقطاع ، خشية قيام أرمستقراطية إقطاعية ، وأن لا يقيم الأمير فى إقطاعه بل فى القاهرة أو فى عاصمة الإقليم الذى يوجد به إقطاعه ، مادامت العبرة بالدخل لا بالملكية . لذلك لم يعرف الأمير الشرقى فن إقامة القلاع

(١) التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٣ .

(٢) المخطوط ج ١ ص ٨٧ و ١٥٦ .

(٣) راجم السلوك : حاشية ٢٢١ قسم ١ ج ٢ ص ١٤٦ .

(٤) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٢٧٩ -

والحصون والقصور المحلية المناهضة للسلطة المركزية كما كان حال زميله في الغرب الأوربي^(١). وتختلف ضريبة الأقطان باختلاف أرض مصر ، فأغلب أرض الوجه البحري تحصل الضريبة نقداً ، على عكس الوجه القبلي فتحصل عيناً ، ويزيد قدر الضريبة نقداً أو عيناً تبعاً لحصوبة الأرض ومقدار ما تنتجه من غلة وارتفاع النيل وانخفاضه^(٢). وحسبك أن تعرف أن خراج مصر على زمن السلطان الظاهر بيبرس بلغ اثنتي عشر مليوناً من الجنيهات وهو أقصى ما جتته مصر منذ ولاية عبد الله ابن سعد بن أبي المرح^(٣).

ومهما قيل عن حسنات نظام الإقطاع الحربي وسببانه ، فلا جدال أن تياراً إشتراكياً مشهوداً نما وعاش في كنف هذا النظام على هدى من المبادئ الإنسانية العامة لأحكام الشريعة الإسلامية والعرف الشرقي ، إذ ظلت الملكية الفردية والميراث والأسرة أساساً جوهرية مرعية نظرياً وتطبيقاً ، كما ظلت حقوق الفقراء المساكين واليتامى والمجزة مقررة في بيت المال تقضى من الزكاة والصدقة . وكانت فرص العمل وتسكافؤها متاحة لغالب الناس . تمثل هذا التيار الاشتراكي الأصيل في المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية والمشاريع العمرانية والزراعية التي تقيمها الدولة والأمراء والتي لا يتسع المقام لذكرها هنا ومنها على سبيل المثال القرارات الثورية التي يصدرها بعض السلاطين لمواجهة أزمات التوهم التي تعرضت لها البلاد وقت الأزمات كأزمة عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) حين ارتفعت أسعار الغلال وتمذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز لجشع الأمراء والمستغلين ، فأغرق السلطان الناصر عهد الأسواق بالغلل التي استوردها من الخارج على جناح السرعة . ونودي بالقاهرة ومصر « الألباع القمع بأكثر من ثلاثين درهماً للأردب الواحد ، ومن باع أكثر من ثلاثين نهب حاله » . ورسم الناصر بفتح شونه وبيع ما بها ، واشتد بالضرب البرح على المخالفين ليعيهم الخبز بأكثر من السعر المحدد^(٤) . وكثيراً ما يلجأ السلطان المملوكي إلى مصادرة عقارات وحواصل ومتاجر وأموال كبار التجار والأمراء والحكام الجشعين

Lewis : op. cit., pp. 155-156.

(١)

(٢) القلقشندي : ج ٣ ص ٤٤٨ .

(٣) ابن إياس : ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ١٩٦ .

والمعرفين والتجربين بأقوات الناس وعرضها في الأسواق بالأسمار التي يحددها المحتسب (١).

ويشير ابن بطوطة إلى تيار اشتراك آخر حين يتحدث عن الأوقاف الخيرية بدمشق وأوجه نشاطها، ومنها أوقاف عن العاجزين عن الحج تعطى لمن يحج عن الرجال منهم كفايته، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهي اللواتي لا قدرة لأهلن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما ياكلون ويلبسون ويتزودون بللادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، لأن أزقة دمشق لسكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير (٢). ويذكر ابن بطوطة أن دير الفاروض بخارج اللاذقية يعتبر أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين، فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والخبز والجبن والزيتون والخل والكبر (٣). وتمثل عيinat الخدمات في الجامع والخاتاه اللذان أنشأها الأمير المقر السيفى شيخو بالصليبية الطولونية، وأنشأ بها حمامين وربوعاً ودكاكين. وقرر بالخانكاه شيخاً اسمه أكمال الدين محمد الرومى الحنفى، وقرر له فى كل شهر أربعائة درهم، وجعل عنده عشرين قمتاً. وجعل خطيب الجامع جمال الدين خليل بن عثمان الزولى، وجعل به درساً للمالكية أيضاً وولى تدريسه نور الدين السخاوى وقرر له ثلثمائة درهم فى كل شهر، ورتب به قراء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف، وقرر لهم معالم بلغت جماتها فى الشهر ثلاثة آلاف درهم. وأوقف شيخو على هذا الجامع والخاتاه وأوقافاً كثيرة، وقرر للصوفية الخبز والطعام فى كل يوم والحلوى العجمية فى كل شهر وغير ذلك من الجوامع والمربتات للصوفية. وجعل فى الخاتاه تدريساً وقراءة سبع فى كل يوم (٤).

(١) راجع: السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٨٨١ — وابن لباس ج ١ ص ١٦٢.

(٢) الرحلة: ج ١ ص ٨٣.

(٣) شرحه: ج ١ ص ٦٠ و ٦٦.

(٤) ابن لباس: ج ١ ص ٢٠٣ — السلوك: ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٤.

وكيفما كان الأمر ، فظاهرة الغلاء والرخاء ما زالوا يتعاقبان في دولة البرين والبحرين حسب عينات سلاطينها ، فالبجعية منهم « ما كان أحسن تديريهم ، وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم ، حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد ، واستجابوا خواطر الرعية ، فنالوا الرتب السنية » (١) . فقطز كان أحد أولاد أخت السلطان خوارزمشاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبي ، وجلب إلى مصر حيث أخذ يتقدم في جيشها حتى نصب سلطاناً ، وتمكن من التنكيل بالغل في عين جالوت . وكان بيبرس من أسرى القعاق قدمه البنادقة إلى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الإمارة ، ثم قتل قطز وصار بيبرس سلطاناً لمملكة ضخمة ، وكان قلاوون من نفس الأصقاع العجاقية وزميل قديم لبيبرس . وكان كتيبغا زوج بنت هولاكو الذي فتك به الأمراء لما حاول تدعيم ملك مغولي . أما سلاطين البرجية ، فزمانهم بخلاف ذلك كله « فالقدم مؤخر ، والصغير متممر ، والقلوب متنافرة ، والشرور متظاهرة » (٢) . ويقول المقرزي في خطبه أن قوصون قال لببشناك عند وفاة قلاوون ، وكانا يتنازعا على السلطة « أنا ما يبجيء مني سلطان لأنني كنت أبيع الطمسا والبرغالي ، والكشاندنين ، وأنت اشتريت مني وأهل بلدي يعرفون ذلك . وأنت ما يبجيء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك » (٣) .

هذا هو التفسير التاريخي لسقوط دولة البرين والبحرين على أيدي سلاطين من أفبج وأرزل الناس ، أهملوا نظام التجنيد المملوكي ، وأساءوا فهم الإقطاع الحربي ، فأفقروا العباد وخربوا البلاد حتى صارت الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد » (٤) . مما أدى إلى تدهور الاقتصاد وتوالي الأزمات ، فاستحدثوا سياسة الاحتكار في الزراعة والتجارة لتغطية نفقاتهم المعيشية

(١ ، ٢) النجوم : ج ٨ ص ١٦٦ و ٢٢٨ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ — صبعي وحيد ص ٧٦ .

(٤) المقرزي : إغاثة الأمة ص ٣٦ و ٤٦ .

وحملاتهم الحربية . يقول القرينى إن أهل الدولة احتكروا الأقوات ، ومنعوا الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، وضرب لذلك مثلاً عن احتكار السكر على عهد السلطان برسباى الذى ختم مطابحه وألزم من يدولب طبخ السكر ألا يتعرض أحد منهم لعمله ، ومنعت باعة السكر وباعة الحلوى فى شراء السكر إلا من سكر السلطان ، وعمل لذلك ديواناً ، وأقيم له جماعة ليدولبو السكر ، فامتنع كل أحد من بيع السكر إلا للسلطان ومن شراء إلا من سكر السلطان ، فضاق الناس ذرعاً بذلك وتضرر به جماعة عديدة^(١) .

وأكمل الوباء والجراد وإفارات البدو وزحف الصحراء وقصر النيل وغيره من العوامل الطبيعية عمليات التخريب الاقتصادى فاضطر السلاطين إلى القروض المالية والسلفيات من تجار الكارمية كي تمكنهم من القيام بمشروعاتهم الحربية والعمرائية على قول أبى المحاسن^(٢) . فضلاً عن فرض الضرائب غير الشرعية على الرعية . وفى هذا الصدد تقول الرواية التاريخية أن برسباى احتاج إلى المال فجمع قضاة المذاهب الأربعة ليقروه على فرض ضرائب إضافية ، فرد عليه أحدهم رداً بليغاً نصه « كيف نقر أخذ مال المسلمين بينما ترتدى زوج السلطان ، يوم ختان ولدها ، فستاناً تبلغ تكاليفه ثلاثين ألف دينار . وذلك فستان واحد وزوجة واحدة »^(٣) .

ما أجراً هذا القول وما أشبهه بقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المنصور على بن المزمز أليك يوم أن عقد مجلس القضاة بالقلمة عام ٦٥٧ هـ لإقرار أخذ أموال العامة ونفقتها على العسكر لمواجهة التتار . ونصه « إذا لم يبق فى بيت المال شيء ، وأنفقتم الخواص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتهم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندي إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم »^(٤) وسار على نهجهم الحرا الشيخ أمين يحيى بن الأقصرائى الحنفى شيخ المدرسة الأشرفية برسباى الذى أنكر على السلطان قايتباى فرض زيادات على الناس فى أرزاقهم

(١) شرحه : ص ٤٢ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٢٧١ .

(٣) Lewis : op. cit., p. 157.

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ .

وظائفهم وإقطاعهم وفائض أوقافهم لمواجهة فتنة شاه سوار . وكان مجلس الخليفة والقضاة والأمراء قد وافق على رغبة السلطان . أما الشيخ أمين فأجابه بأنه لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بطريق شرعى ولو نفذ ما فى بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً حتى ينفذ ما بأيدى الأمراء والجند من الأموال والتاع والأقمة مما لا يحتاج إليه فى الحرب . وانقض المجلس على غير رضى السلطان وإقاعه عن الوصول إلى مراده بفضل معارضة الشيخ أمين هذا . وكان المعلوم عند كل أحد أن أرباب الوظائف والقضاة لا يعلنون إلا حيث مال السلطان والقول ما يقوله السلطان ، فما بقى بعد ذلك إلا الإذعان والوزن لما أشار به الملك على قول مؤرخ معاصر (١) .

هذه أعماط لمواقف عديدة وقفها العامة والخاصة فى وجه الاستبداد والظلم تنذر بسوء عاقبة الظالمين . وبعدها جاءت الضربة المندرة بقرب فناء دولة البرين والبحرين فى ١٧ مايو سنة ١٤٩٨ يوم أن وصل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما إلى أرض الهند عن طريق البحر مطوّفاً حول رأس الرجاء الصالح . ثم عاد فاسكو إلى لشبونه فى أغسطس سنة ١٤٩٩ محملاً بالهدايا الشرقية النادرة ، ومعلناً اكتشاف طريق جديد من أوروبا إلى الشرق الأقصى ، أسرع من طريق البحر المتوسط والمياه المصرية . وفى ١٥٠٦ م (١٩١٢ هـ) وصلت طلائع الاستعمار البرتغالى إلى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بقيادة البوكرك ، واحتلت - فى غفلة من السلطنة المملوكية المتداعية - سقطرى ، ودارت حول عدن ، وصاحت الشاطيء العربى الجنوبى حتى هرمز ، وألزمت ملكها بدفع الجزية (٢) . ومنذئذ « تزايد الضرر من الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن الخفية ، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد » . على قول ابن إياس (٣) .

وواصل البرتغاليون زحفهم جنوباً مع ساحل ملبار ، واحتلوا جوا ، وهاجموا

(١) أبى المحاسن : منتخبات ج ٣ ص ٥١٦ و ٦٣٦ .

(٢) بانينكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ .

(٣) بدائه الزهور لابن إياس ، بقلم زيادة : تراث الإنسانية ص ٢٦٢ .

قالقووط مركز العرب لتجارة التوابل وأزلوا الهزيمة بالأسطول المصرى الهندى المشترك فى معركة ديو البحرية ١٥٠٩ م . وبعدها بعامين (١٥١١ م) وصل البوركرك أمام ملقا وخطب فى رجاله مؤكداً « تلك الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعله محمد بحيث لا يتدلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وإنى على يقين أننا إذا انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيدي المسلمين لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين » (١) .

تلك كانت نهاية القومية العربية والإسلامية فى بحر الهند والشرق الأقصى ، ولم يعض أكثر من خمسة أعوام على هذا القول حتى اجتاحت جعافل الاستعمار التركى العثمانى أطراف الشام الشمالية ، وبلغت مدينة حلب ، على أن أحداث هذا العدوان لم تجيء مفاجئة لعام ١٥١٦ م . بل إنها وقعت بعد سلسلة طويلة من العلاقات الودية المتبادلة بين السلطنتين العثمانية والملوكية ظلت حتى ١٤٦١ م . وبعدها تحولت إلى معاداة ومباغضة ، لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة فى عام ١٤٨٣ م على عهد بايزيد العثمانى وقايتباى الملوكى ، واستمرت ثمانية أعوام حسوماً طويلة أعقبتها سلام امتد من ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م على قول زيادة (٢) . وذلك حين صحح عزم سليم العثمانى على الاعتداء ، وبعد أن مهدت له الطريق جاسوسية ناشطة غادرة مكتبته من النصر السريع الحاسم يوم واقعه مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وانهارت فيها قوة المماليك وتفرق الجند شذر مذر تحت نيران العثمانيين على قول ابن يباس (٣) .

وقاد الخائن خان خيربك وجان بردى العزالى سليم العثمانى إلى جنوب الشام ، ودلاه على مواقع الدفاع المصرية والشامية ، وأطعماه فى مواصلة الزحف إلى الديار المصرية حيث قضت معركة الريدانية يناير سنة ١٥١٧ على السيادة المصرية والقومية العربية ، وحولت البلاد إلى ولاية عثمانية ، ودعى الخطباء للسلطان سليم على منابرها ولقبوه « ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان المراقين وخادم الحرمين

(١) پائيكار ص ٤٨ .

(٢) نهاية سلاطين المماليك ص ١٩٨ وما بعدها .

(٣) بدائم الزهور : ج ٣ ص ٦٨ .

الشرفيين» (١) كرمز السيطرة على مملكة البرين والبحرين وعلى العالم الإسلامي (٢) وكان الأجدد بهم أن يلقبوه ملك البرر « الثلاثة والبحار الثلاثة » أى البر الأفريقي والبر الآسيوي والبر الأوربي ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود . وبذا انتقل مركز الثقل السياسى والحضارى فى مثلث البحر المتوسط من القاهرة إلى استامبول أو من زاوية الشرق والجنوب إلى زاوية الشرق والشمال ، وهما الزاويتان اللتان تبادلتا السيادة فى هذا البحر طوال عصوره التاريخية .

— ٥ —

هكذا طوى تاريخ دولة البرين والبحرين كطى السجل للكتب ، وعلقت صورها فى متاحف التاريخ ، على حين عاشت حيه مضيئة فى عقول وأفئدة أبنائها جيلا بعد جيل ، وقامت محاولات عدة لإحيائها ، أولها ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر حين تحولت حركة على بك الكبير (١٧٢٨/١٧٨٤ م) من منافسة عادية على مشيخة البلد عام ١٧٥٥ م بينه وبين خشداً شيته أمراء الجراكسة المعروفين عند الجربى بالأمرء المصريين أو البكوات إلى حرب انفصالية فيما يرجح ، شنها شيخ البلد على بك الكبير المنتصر على السلطان العثمانى وقتذاك عبدالحميد الأول ، واتجه أثناءها اتجاهها عربياً قومياً لا عهد لمصر بل وللبلاد العربية به منذ زوال السلطنة المصرية الشامية المملوكية ١٥١٧ م . فعلى بك انتهز فرصة إنشغال تركيا بحربها مع روسيا (٦٨ — ١٧٧٤ م) وأدرك ما تعانیه الشعوب العربية من بؤس وشقاء واستعباد فى ظل السيادة التركية فأخذ يفكر فى التعبير عن رغبة تلك الشعوب فى التحرر ، وذلك يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومشروعاته التوسعية . فاستولى على الحجاز ١٧٦٩ م ومنحه شريفها لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » . وجعل بتلك الخطوة الجريئة البحر الأحمر بحيرة مصرية عادت إليها تجارة الشرق وسواحل الهند . وأرسل فى عام ١٧٧١ حملة مصرية بقيادة أبى الذهب إلى سوريا - وهو اتجاه طبيعى تسلكه مصر فى عصر الصحوة - لتحقيق وحدة مصر وسوريا

(١) ابن لياس : ج ٣ ص ٩٨ .

(٢) راجع الألقاب الإسلامية للدكتور حسن باشا ، طبعة ١٩٥٧ ص ١١٣ و ١٧٤

وص ٣٣٤ و ٣٣٧ .

ومصالحهما للشركة . وكانت هذه المرة الأولى التي يخرج فيها جيش مصرى إلى هذا الاتجاه الأسيوى منذ ١٥١٦ م . وسرعان ما تجاوب المصريون وانشاميون إلى حركة الوحدة . وانضم الشيخ الثائر ظاهر العمر صاحب عكا إلى الوحدويين ، وتلاقت أهدافه مع أهداف على بك ، ودخلت جيوشهما معاً دمشق ونشرت الأمن والسلامة في ربوعها ، وغدا على بك في يونيه ١٧٧١ م . في مركز يسمح له أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا ومحبي دولة البرين والبحرين بفهمها القديم كما كان أسلافه على قول قنصل فرنسا في صيد ، وقتذاك^(١) .

وأزعجت هذه الحركة الوحدوية الخطيرة الباب العالى فجأ إلى أساليب السياسة العثمانية واستمال إليه أحد أتباع على بك المقرين ، وهو محمد أبي الذهب الذى خان العهد وأعلن العصيان وانضم بقواته إلى قوات الاحتلال العثمانية وحارب على بك وظاهر العمر وهزمهما ، ومات على بك متأثراً بجراحه في القاهرة في مايو ١٧٧٣ م^(٢) . وبذا فشلت حركة على بك وقيل في تحليل فشلها تأخر وصول المساعدة الروسية إلى دمياط وكانت روسيا قد وعدت بتأييده ومساعدته بقوات بحرية وبرية .

وكانت المحاولة الثانية لإحياء دولة البرين والبحرين في النصف الأول من القرن التاسع عشر حين تحولت المنافسة بين واليين عثمانيين هما محمد على والى مصر وعبدالله باشا الجزائر والى عكا إلى حرب انفصالية (٣١ — ١٨٤٠ م) شنها محمد على على السلطان نفسه ، وألبسها ثوب القرن التاسع عشر مدعياً أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق يجب أن تكون جبال طوروس .

ومن الراجح التي تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان « يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم إليها البلاد العربية في أفريقية وآسيا . ففي أفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان . وفي آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية

(١) راجع : رفعت رمضان ، على بك الكبير ص ١٩٩ ، وأيضاً . Deherain : op. cit. p. 130.

(٢) حسن عثمان : المجلد في التاريخ المصرى - ٢٨٢ .

الكبرى» . على قول المرحوم الرافعى^(١) ، أى أن محمد على قدر حاجات مصر الدولة الناشئة على أساس من التاريخ ووحدة اللغة وتبادل المنافع الاقتصادية ، واعتمد في تحقيق مشروعه هذا — الذى يحقق في الوقت نفسه أطماعه ومغامراته — على الدعاية للقومية العربية وادعاء كراهيته للتركية بدليل قول ولده إبراهيم باشا لأحد بارونات فرنسا « أن أباه يحكم مصر والسودان وسوريا ، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وأن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو في صلته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لا ينفك يطعن في الأتراك» . فسأله البارون كيف يطعن في الأتراك وهو منهم فأجابه إبراهيم باشا على الفور « أنا لست تركياً فإني جئت مصر صيباً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيّرت من دمي وجعلته دماً عربياً»^(٢) .

ولا غرابة في هذا القول فقد سبق إبراهيم فيه سلاطين الممالك الذين وفدوا صيباناً ، وتعمروا وتعربوا وأسلموا وعبروا عن شعورهم نحو القومية العربية الإسلامية قولاً وعملاً ، وقطفوا ما قطفه إبراهيم من ثمار « فاحتل إبراهيم وقتاً ما موقعاً على الفرات ومد سلطان أبيه نحو الخليج الفارسي ومدخل البحر الأحمر ، وخضعت له الحسا والقطيف من ناحية ، وانتصرت قواته على عسير ، واحتل لفترة قصيرة عدن من ناحية أخرى» . وزاد محمد على فبادل شاه فارس شعائر الود . ولكن السياسة الإنجليزية نجحت في وقف الاتساع المصرى في مناطق كانت تعدها من مناطق نفوذها . لذلك تمسكت إنجلترا بسياستها في المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها ، فزعمت في لندن مجمع الدول ، وأعلنت معاهدة لندن في يوليو سنة ١٨٤٠ ، وظلت تسوية لندن في أساسها قائمة حتى انتهت فعلاً بإعلان الحماية البريطانية على مصر في ١٩١٤ وقانوناً يتنازل تركيا عن سيادتها على مصر في مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣^(٣) .

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) الرافعى : عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم : المجلد في التاريخ المصرى ص ٣٣٧ .

وتوجت محاولات إحياء دولة البرين والبحرين بنزول المعجزة الكبرى وانفجار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الشعبية في قلب القاهرة رائدة الأمة العربية والعالم الإسلامي نتيجة الوعي القومي العربي وتغلغله في نفوس الجماعات ، وأدرك رائد الثورة المصرية منذ البداية « أن الدائرة العربية منا ونحن منها ، امتزج تاريخها بتاريخنا ، وارتبطت مصالحننا بمصالحها حقيقة وفملا وليس مجرد كلام »^(١) . وتصرف إيجابياً بكل ما تملك الثورة من مقومات ، فمقد ميثاقاً عسكرياً للدفاع المشترك بين مصر وسوريا في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٥ نزلت بمقتضاء قوات مصرية حربية في سوريا في أكتوبر سنة ١٩٥٧ لتكون سنداً لها ضد المؤامرات الداخلية والحشود البرية ، التركية وحرركات الأسطول الأميركي السادس على شواطئها ، واستقبلت سوريا حكومة وشعباً هذه القوات بالترحاب والابتهاج ، لأنها لم ترها منذ محاولة محمد علي .

وفي أول فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن رئيسا جمهوريتي مصر وسوريا توحيدهما في دولة واحدة اسمها « الجمهورية العربية المتحدة » ، بديلا عن التسمية السياسية القديمة « دولة البرين والبحرين » تمشياً مع القاعدة الدولية التي تسير عليها الدول العريقة والتي تعرف الأسماء السياسية ، فروميا اسمها السياسي الجديد بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ هو « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وأمريكا اسمها الرسمي « الولايات المتحدة » وأنجلترا تغير اسمها من بريطانيا العظمى إلى المملكة المتحدة بعد أن ضمت إليها اسكتلندا وإيرلندا في بداية القرن الثامن عشر الميلادي . يقول عبد الناصر في خطبة له « هذه الجمهورية العربية المتحدة ستكون سنداً للعرب وقوة للعرب جميعاً ، ستعادي من يعاديها ، وتسالم من يسالمها ، وتتبع سياسة تتبع من نفسها ومن ضميرها »^(٢) . ووقعت اليمن في ٨ مارس سنة ١٩٥٨ إتفاقاً مع الجمهورية العربية المتحدة يتضمن إقامة اتحاد فيدرالي بين البلدين .

لكن الاستعمار والصهيونية العالمية والرجعية العربية دبرت بليل في دمشق

(١) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة .

(٢) الرافي ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ص ٣٥٦ ؛ أحمد سويلم العمري ، دراسات

في المجتمع العربي ، ص ٦٥٠ طبعة ١٩٦١ .

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ الانفصال وكان الرد على جريمة الانفصال حاصماً سريعاً في ٢٦
سبتمبر ١٩٦٢ — حين اندلعت الثورة اليمنية وقوضت عرش الرجعية التوكلية في اليمن .
ومنذ ذلك التاريخ والقاهرة تقود زحفها المقدس على طريق الوحدة والحرية
والاشتراكية ، وتقوم بدور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه تعجير الطاقة الكامنة في
كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا على قول عبد الناصر في فلسفة الثورة ، وفقه
الله وأيده بنصر من عنده .